الفصل الرابع

الأدب الإسلامي لدى الإلوري

وعلى الرغم من أنّ مهمّة هذا الكتاب تنصب على ديوانه فإنّ ذلك لا ينبغي أن يصرفنا عن الإلمام اليسير بواقع الأدب الإسلامي في بقية فنونه لعلّه يؤتي فهما دقيقا عن رسوخ المنهج عنده ، فيغدو نافذا يطلّ على موضوعات أخرى تتدفق إلى هذا الميدان وخصائصه . ذلك بأنّ واقع تراثه يوحي قوة بارعة باتجاهات إسلامية ، وقد ورد في مقدمة تعليقه على قصيدة (صرف العنان) ما يحمل قولا بارعا من الحكم العادل .

ومن الوضوح بمكان ، أنّ هذا ليس عفو خاطر ولا صدفة عقل بل أتى ثمرة تجارب نبوغ ونباهة ترسّخت منذ عهد الطفولة ، ولم تزل تصاحبه حتى آخر أنفاسه ، وعلة ذلك ما جاء في الموضوع ذاته :

لقد سمعتها ـ صرف العنان ـ أنا لأوّل وهلة من والدي رحمه الله تعالى ، كنت صبيا وهو يعظ بها الناس في المساجد ، وقرأتها قبل قراءتها على معلمي في المدرسة كما قرأها زملائي على آبائهم ، وهي أوّل أرجوزة غرّد بها ديكي الصدوح بعد كتاب الله عند أوّل بدايتي للوعظ والإرشاد في قرية (أمي) بقرب إبادن[1] .

وما دام الإلوري قد تذوّق ما في القصيدة وما على شاكلتها من أريحية ونشوة ترفعها إلى صفوف التصور الإسلامي في الأدب مادة وروحا منذ عهد الأخذ إلى الأداء ، ولا يفتأ يسير على هذا المنوال فلا بأس أن يصنف تراثه أدبا

---

(1) الكشناوي ، مودي ، صرف العنان ، تحقيق العلامة الإلوري ، ص:٤.

إسلاميا ، إذ يدلّ واقع حياته على أنّ ملامح هذا الاتجاه تقوى في إنتاجه ، وهو قول قد تقرّر ذكره غير مرّة بأنّ آثاره بشكل عام تعدّ مرآة جلية تعكس لنا جوانب مضيئة من معاركه الطويلة العادلة لاستعادة الخلافة الإسلامية التي أقعد الاستعمار مدّها إلى الجهات المعمورة في مناطق أوفا ، وأرْمَوبَيْ ، وإكِرُنْ ، وما جاورها من مدن وقُرى[1] .

ولا شك أن تلك الفكرة التي اندلعت ثورتها على يدي جمال الدين الأفغاني ، وكوّنت أسسها ومقاييسها فأصبحت العبارة المؤدية مباشرة ، ولكن الجيل الذي يليهما في العالم الإسلامي قد حذقوا حذقا كبيرا ، وتطور أساليبهم تطورا مرنا ، فخرجت من دائرة العلم إلى الذوق والإيحاء والإيماء ، وتزهو به المرونة والرونق ، وطاوعتهم الأسجاع والأجنسة ، ولم يكن الفاصل ، بينما عبّر عنه الشعراء عما قاله الثائرون على خصائص فنية بديعة ، وقد أسهم إسهاما بالغا بكتبه في أدب الدعوة[2] .

وعلى أثر ذلك مضى الاحتلال يحسد القوم، فشرع يخطّط برامجه المعادية، وينفذها واحدة تلو أخرى ، فجمد وسائل الإعلام والتربية والاقتصاد ، وخرب معاهدها وكلياتها وجامعاتها ، وشنّ حروبا طاحنة على روادها ليصرفهم عن مجراهم السليم إلى القيعان والغدران ، وآب المسلمون إلى نقصة البدء ، وعلى هذه الشاكلة يحس الإلوري إحساسا قويا لمناهضة هذه الأوضاع الوخيمة بقدر ما آتاه الله من قدرة على امتداد العقود الخمسة ، فملأ مكتباتنا لعربية بعديد من كتب ورسائل ومقالات وعروض كثيرة في المؤتمرات والحلقات، والملتقيات، على الأصعدة الإقليمية ، والوطنية ، والعالمية لنصر القضايا الإسلامية ، وانتهج

---

(1) لذلك غلب على عناوين كتبه الإسلام ، ومعطياته وقضاياه على امتداد العصور ، لا سيما العهد الراهن .

(2) راجع له في ذلك: تاريخ الدعوة إلى الله ، والإسلام اليوم وغدا ، الإسلام وتقاليد الجاهلية .

فيها خططاً حكيمة للدفاع عن أمجادنا الرفعية ، وخاصة الأدب الذي يبرز أقوى أسلحة تخاض بها المعارك الكلامية الجليلة لما يبدعه من أفكار وعواطف وأساليب لنشر المبادئ والمقاصد النبيلة التي تشهدها الإنسانية ، ليست أيام الصراع فقط بل يمتدّ إلى بعدها لتلقي الدروس والعبر في مواطن التقصير لازدياد النصر والغلبة .

والحق أنّه لم يتابع حال حياته نشأة الأدب الإسلامي ، ولم يشهد مراحل تطوّره ، وإن كانت له صلات قويّة بأعلامه ، ومن بينهم رائده الخالد المرحوم أبو الحسن علي الندوي ، حيث انعقدت بينهما أواصر علمية ودينية خلال مؤتمرات عدّة ضمتهما ، وتوثقت بينهما وحدة المواقف والاتجاهات والآراء . ومن أولئك الأعلام الأدباء الإسلاميين الذين تربطهم به الزمالة الإسلامية ، الشاعر الإسلامي الكبير بهاء الدين الأميري خصوصا إبان زيارته للمغرب ، ولقائهما في رباط الفتح ، فقدّم له بهاء الدين كتابه « الإسلام في نيجيريا وعثمان ابن فودي »[1] ، ومن ناحية الإلوري فكثيرا ما كان يتخير قصائد الأميري استشهادا وتمثلا إلى جانب عديد من الإخوان المسلمين وأعلام التضامن الإسلامي الذين كانوا أقطاب هذا المنهج الأدبي ، وقويت صلاته وروابطه بهم وطيدة في ميادين الصحوة واليقظة للتراث الإسلامي وأدبه وفنونه ، ومهما يكن الأمر ، فإنّ تلك الأحداث لم يشهدها الشيخ آدم حال حياته ، ولعلّ مرد ذلك أن نشأة المنهج تمثّل فترة كبر سنه ، فحالت بينه وبين متابعة تطورات تجرى في العالم الإسلامي ، ولم تسمح له متاعب العمل بحضور مؤتمراته .

ومهما يكن الأمر فإنّ تراثه في ذات أدبه وفنونه الغزيرة يمثّل ركيزة خصبة لإثراء الأدب الإسلامي في بلادنا ، وقد جعل مصدره الأساس لاعتقاده الرصين في صلاحية الإسلام وبقائه وخلوده ، وحين يدفعه دفعا قويا إيمان صحيح بأنّ حقائق هذا الدين الحنيف لا تزال بحاجة ماسّة إلى عقل واع لعرضها عرضا

---

(1) الطبعة الثانية ١٩٧٠ ، بيروت ـ لبنان .

قويا يلائم روح العصر الحديث من منطلق الدقة ، وأنّ إيمانه هذا بعظمة تجديد الفكر الإسلامي لا يختلف عن شعوره القوي بجلال البيان العربي ، وما كان حقّا على الأديب الإسلامي في التفكير كان واجبا مقدّسا في التعبير العربي السليم ، لأنّهما ركنان أساسيان لا ينفصلان ، ولذا يهيب الأمر بشروح وتفصيلات ممن أوتوا بسطة علم وفكر وبيان وذوق للاجتهاد والاستنباط في كلّ وجه يزيد الحياة رخاء وسعادة ما داموا يستوفون شروطا فنيّة من أساليب راقية ذات قوّة وجلال في عالم الإبداع .

وواضح أنّ مسئولية الأدب الإسلامي وأهدافه النبيلة تتعالى أقدارها في تجلية وجوه هذا الدّين الحنيف القويّة ، وحمل أمانته الجليلة ، وأنه يستوجب اكتساب الذوق والملكة للتعبير عما يرضي الله ورسوله ﷺ والمؤمنين ، ويمكن أن نستشف قوّة رسوخ قدمه في هذا المفهوم فيما يتمّ عرضه من تراثه .

وعلى الصورة الإجمالية ، فإنّه يتراءى في شدّ كلامه على التكامل بين الشكل والمضمون في أداء مهماته وعرض قضاياه .

وأما الفكرة فقد أيقظ هما راقدة لما بثّه من الوعي في نفوس المسلمين ليثقوا ثقة كبيرة بدينهم وشعائره ، ولما يتميز به من شمول وصلاح ، وخلود ، وبقاء ، وقد تردّد ذلك مرارا في معرض آرائه : « والإسلام رسالة سماوية شاملة لنظام العبادات والعادات والمعاملات ، فذلك معنى الدين »[1] .

وجلّى هذه الفكرة تجلية موسعة تنبئ عن دقة التفصيل ، وقدرة الاستيعاب ، وجمال التقصي للحقائق والموضوعات الإسلامية في تحديد أهدافها وغاياتها ، ونحصر ذلك في اتجاهات آتية :

---

(1) الإلوري ، تاريخ الدعوة إلى الله من الأمس إلى اليوم ، ط٢ ، مكتبة وهبة ، عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، ص: ٢٣٩.

الاتجاه التاريخي :

اهتم الإلوري بتتبّع واع للأحداث الجليلة التي مرّت بها شعوب المنطقة عبر تاريخها الطويل ، ومنها ما بنتها نيجيريا من منطلق أصالتها الإنسانية ، فانعقدت العلاقات الوثيقة بين أفراد الشعوب والقبائل ، وما يمتدّ بينها وبين الأمم المجاورة والمتباعدة ، وعلى الرغم من أنّ العصور السحيقة تخضع لظروف ساذجة ، فقد عرفت للإنسان النيجيري مآثر حضارية مادية ومعنوية توحي بقيم ومثل يتواضع لها الأفراد والجماعات لبناء الحياة المتكاملة في الرخاء والسعادة والفضيلة والمودّة ، ثمّ عمد إلى استكشاف أصول هذه الشعوب وعاداتها وتقاليدها وتراثها ، وقد أرجع بعضهم بسند قوي إلى الشرق والغرب العربيين لربط الحاضر بالغابر[1] . وكان أبرز ذلك الإسلام وطاقاته الثقافية الكبرى ، وعرض أحداثها والأشخاص الذين قاموا بأدوار هائلة[2] .

تلك العبقريات الإسلامية لم تشهد أمّة أفريقيا لها مثيلا في ماضيها البعيد ، وحين جعل منهم هذا الدين الحنيف عمالقة العلم والأدب والفنّ والبيان ، وبنى غيرهم قادة السياسة والحكم والإدارة ، ورفع الآخرين سادة الاختراع والعمارة والإصلاح ، صنع الإسلام هذا العجب العجاب قبل نهوض الاحتلال الأوربي في بلاده .

ومن المقطوع به ، أنّ استحياء هذا التاريخ يجعل المسلم النيجيري يعتزّ اعتزازا كبيرا بدينه ولا يستهين ، ولا يتردّد في أنّ هذا المجد العظيم قد امتدّ من مهد الإسلام إلى غرب أفريقيا منذ فجره الأوّل ، ومن أروع ما يقول :

إنّ هناك شبها متقاربا بين أثر الإسلام في الأمة العربية ، وأثره في الأمة السودانية حيث وجد السودان أمة غير كتابية ، عبيد البيضان في كلّ مكان ، وأزال عنهم الأمية ، ونشر بينهم الحضارة ، فرفعهم إلى صفوف الأمم الراقية ،

---

(1) الإلوري ، موجز تاريخ نيجيريا ، ص:٢٢٨ وما بعدها.

(2) الإلوري ، الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي ، ص: ٣٦-٤٢.

فعظم بينهم ضروب الثقافة العالمية ، وذلك قبل المدنية الغربية في بلادها ، وأجلّ من ذلك تلك المساواة التي أنصف النبي السودان من خسف الذلّ والمهانة عندما زوج ابنة عمّه زينب الهاشمية القرشية البيضاء لزيد بن حارثة الأسود المتوج بفضل النبي ﷺ ، وجعل مؤذنه بلالا ينادي الأمة دائما إلى الصلاة بصفة وزير الإعلام الإسلامي ، وهو أسود حبشي أفريقي ، ولا أنسب للرجل الأسود من دين سوى الإسلام ، كما يقرّ لزنوج أمريكا الذين يقاسون أشدّ الاضطهادات من أجل جنسهم في القرن العشرين ، وفي أمريكا على الرغم من الدعاوى الباطلة بأنها أرقى من ينادي إلى الحرية والإنصاف»[1] .

الاتجاه التربويّ :

إنّ التربية القويمة منة الله لعباده على لسان الأنبياء والمرسلين الذين أتى ابن عبد الله الأمين ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعا ـ متمّا لرسالاتهم ، وهي ميراث الفقهاء والمفكرين والبيانيين إلى الناس كافة ، ولكنّ الاستعمار لم يكد يستولي على البلاد حتى احتكر الأجهزة العلمية في بوتقة السيطرة والقمع ، ومن ثمّ عالجها الإلوري في موضوعاته الأدبية لإعادة بناء الفرد والجماعة والأمّة بأسرها ، وبيّن ما لها من تقدير عظيم في الحقوق والواجبات على نحو ما شرعه الله جلّ ثناؤه للبشرية يحمله الخلف عن السلف كابرا عن كابر إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها ، ونلمس هذا الفهم العميق في قوله :

للرعيل الأوّل من البشرية فضل كبير على من بعدهم في اكتشاف سبل العيش ومرافق الحياة ، ومن بناء مساكنهم بالأخشاب والأطناب ، أو بالأحجار حتى انتهت بالفراش ، ولم يكن الإنسان يهتمّ بصناعة الكتابة واكتشافها غير رجال الدّين الذين كانوا يحفظون نصوص الوحي في صدورهم ، ثمّ صاروا يسجلونها بالحروف على الألواح الحجرية أو الخشبية ، ثم على الصحف من الجلود والرقاق المنشورة ، ثمّ على الأوراق بالمطابع ، ثم على الشرائط

---

(1) الإلوري . الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي ، ص. ١٤٥ .

بالمسجلات ، وليس ببعيد عنا ولا بخاف أنّ رجال اليهودية والنصرانية والإسلام هم الذين كانوا أعظم حملة لواء تعلّم الكتابة طوال الأجيال المتعاقبة عبر التاريخ[1] .

الاتجاه الإعلامي

بما أنّ نيجيريا المسلمة كغيرها في سائر أفراد أمتها الكبرى تمتاز بطاقات إعلامية هائلة ، إذ جعل القرآن الشورى عقب الصلوات المفروضة ، وقرّر خطبة الجمع والأعياد على مدار الأسابيع والأعوام ، إضافة إلى الأحوال الاجتماعية الطارئة ، وهي قديرة على التعبير عن نفسها والإفصاح المبين عن ملامحها وأقدارها ، ولكن الاحتلال ضرب عليها الخيام الجائر ، وجند وسائل الإعلام المغرضة لبثّ برامج مشوّهة للتجهيل والتغريب ، فلا بدّ من اتخاذ مسلك مجابه قوي من قبل من اختارهم الله لتصدي هذا التحدّي المتكرّر على منهج المصطفى ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ خاتم النبوة والرسالة ، والذي أنزل الله عليه وحيه الكريم ، إعلاما للناس بما أناره لهم من السعادة وسلوك طرقها المثلى ، وتنبيها عن الشقاوة ، وسبلها المضلّة ، وتحريرا من عبودية الخلق للخالق حتى تظلّهم رحمة الإسلام وجلاله ، ويؤكّد هذا المعنى صنع القول على دقة المناسبة ، لا سيما تلك السمة الكبرى التي يعتريها ، وشهد الفتى كيف كان يستغلّ منابر خطبه ووعظه وتعليمه وتأليفه وحدة متماسكة ، إذ لا يكاد يغيب عن الناس أجمعين ما يدور في بيئته وإقليمه وعالمه ، ومن ذلك قوله :

وأسمى معاني الأدب في نظر الإسلام ، ما أفاد الناس بتقويم أودهم وتعديل اعوجاجهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وتربية نفوسهم ، وترقية أفكارهم ، ويفهم ذلك من قول النبي ـ ﷺ ـ : « أدّبني ربّي فأحسن تأديبي » ، و« إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق » ، وقد عني الأدباء اليوم بجانب القشر معرضين عن

---

(1) الإلوري ، نظام التعليم العربي ، ص: ١٢-١٤.

جانب اللب ، وذهبوا كلّ مذهب في تحسين الألفاظ وتجنيسها ، أو في إنشاء قصص وأساطير ، أو في قرض المنظومات لتحسين الاستعارات والتشبيهات دون الجانب الخلقي أو الأدب النفسي[1] .

وما جاء منه في تعريف الأدب بأنّه :

ترويض النفس على القول الحسن والفعل الجميل ، ولذاك استعمل بمعنى التعليم كما يؤخذ من قول النبي ﷺ « أدّبني ربّي فأحسن تأديبي » ، فهو القول الجيّد البليغ من المنثور والمنظوم ، وقد أضاف الإسلام إلى تلك الشروط الأخلاق التي تثقّف العقل ، وتهذّب النفس ، وترفع مستوى المنهج الإنساني إلى المثالية التي تنشدها البشرية [2].

وعلى هذا الأساس يعتقد اعتقادا جازما أن يكون الأدب أداة قوية لنشر القيم الإنسانية العليا على المنهج الإسلامي ، إذ يخاطب العقل والفكرة ، ويهذّب العاطفة والقلب ، وينمي الشعور والوجدان ، ولزم ذلك ضرورة مقاومة خصوم الإسلام ، ووسيلتهم ، وإبطال دعاويهم المغرضة ، وقد أغنى الله المسلمين بمقدرات ، وخاصة تراثهم الأدبي والله يقول : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥) .

ويفهم من ذلك أنّ القرآن الكريم أمر في الدعوة إلى الله ودينه بثلاثة أمور :

الأول : الحكمة : وقال النبي ﷺ : « إنّ من الشعر لحكمة ».

الثاني : الموعظة الحسنة : ومن الموعظة الحسنة الشعر الجيّد ، وما يوصله إلى القلوب من الصوت الحسن وتزيينه ، والإلقاء تنفيذا للفظ إلى السماع ، والمعنى إلى القلوب .

---

(1) الإلوري ، مقدّمة المقطوعات الأدبية ، مزيدة الإمام حبيب الله آدم عبد الله الإلوري ، مطبعة الثقافة الإسلامية ، أغيغي ، عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م ، ٣/١.

(2) الإلوري ، لباب الأدب قسم الشعر ومزيد الكاتب ، مطبعة الثقافة الإسلامية ، أغيغي ، عام ١٩٧٩م ، ص:٣.

والثالث : «الدعوة بالجدل بالتي هي أحسن»[1].

وعلى نحو ما عالج الأدب القيم حارب الرذيل ، وهو ما يعرف في البلاد بالأدب النفسي ، ومنه الخضوع للكبراء والانقياد لهم والجثوّ والبروك لهم ، والانبطاح أمامهم ، وخلع النعال عند تحيتهم وعدم تناول الطعام معهم[2] .

وليست تلكم القولة عبر حائط يزول متى سقط جدارا ، بل إنه عقيدة راسخة تتجلى معالمها في كافة أنشطته وأشواطه وحركاته وسكناته ، فقد آثر البيان العربي فكتب «دروس البلاغة العربية»[3] ، كما نظم «أساس الفصاحة وأسرار البلاغة»[4] ، إلى جانب تطبيقات واسعة تعليقا ناقدا على الأساليب ، والصور ، والأشكال ، لعدة نصوص في مختلف الميادين .

ومن جانب الشكل ، فقد بسط الكلام عن العربية تبسيطا يجعل لإطلالته مغزى محمودا ، فأكّد قيمها ، وعدد محاسنها ، وبيّن خصائصها ، وأعلى مكانتها ، وأثبت عراقتها ، وأعظم مرونتها ، وأجلّ دقتها ، وأمكن وعيها للعلوم والفنون لما تتحلى به من وجوه فنيّة خالدة في المفردات والتراكيب والصور والموسيقى التي تكسبها القدرة على العطاء على مدى العصور والأجيال»[5] .
ونتيجة لهذا يقول :

وإيماننا بأنّ الإسلام هو الدّين الذي ارتضاه الله لعباده ، وأنّ القرآن العربي المنزّل على النبي العربي - ﷺ - هو دستور الإسلام ، وأنّ تجريد العربية عن

---

(1) الإلوري ، مواقف متوسطة ص: ٥٨.
(2) الإلوري ، موجز تاريخ نيجيريا ، ص: ٢٩.
(3) طُبع بمطبعة الثقافة الإسلامية ، أغيغي ، الطبعة الأولى عام ١٩٦٩م.
(4) قام بتحقيقه الأستاذ عبد الوهاب زبير الغماوي.
(5) الإلوري ، الدين النصيحة ، ص: ١٠ ، ونظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، عام ١٤٣٥هـ -٢٠١٤م ، ص: ١٣٨ ، وتاريخ الدعوة إلى الله بين الأمس واليوم ، ص: ٢٤.

الإسلام واعتبارها لغة من لغات العالم ليست لغة الإسلام مؤامرة خطيرة على الإسلام والقرآن[1].

وتحقيقا لهذا الهدف الجليل قام بترقية أسلوبه ، فطارد مطاردة شعواء العجمة والرّكاكة ، سعيا وراء تكوين روائع الفصاحة والتركيب والتصوير على نحو ما سلف ذكره ، وعلى ذلك بنى قلعة حصينة للعربية لتخريج دعاة ووعاظ ومدرّسين وشعراء وخطباء وكُتّاب بلسانها الأصيل الذرب ، وأوفد إلى الجامعات العربية ثلة كبيرة لمواصلة دراستهم داخل نيجيريا وخارجها ، وما وسع به على البيان العربي من آفاق رحبة في الأندية والمسابقات والمناظرات والمحاورات والمحافل إثراء للملكة والذوق ، يضاف إلى ما قام به من نشر كتب ورسائل ومجلات ، ألحق فيها الاستعمار وأذنابه بهزائم نكراء في أدق خنادق استشراقية مبطلا مزاعمها ودعاويها ، مستندا في ذلك إلى حجج قويّة مقنعة ، وجاء قوله :

أما الإسلام ، فقد التزم العربية كلّ الالتزام ، فللعربية تاريخ متّصل بالإسلام ، وللإسلام جذور عميقة في العربية ، وهي التعبد بتلاوة القرآن داخل الصلاة وخارجها ، والحج وأذكاره التي تقام باللغة العربية ، ولا يعني ذلك أنّ الإسلام ينادي إلى التعريب الماسخ ، ولكنّه يستحسن الوحدة العالمية عن طريق الإسلام ، ويقرّر الوحدة الإنسانية على ضوء التفاهم التامّ بين جميع الشعوب والدّول ، ووضع لذلك مثالا في مؤتمر الحج الأكبر الذي هو بمثابة هيئة الأمم المتحدة[2].

وعلى هذا الإحساس القويّ بمدى ما للقول الطيّب من أثر عظيم في نفوس المدعوين ينهض تراث العلامة الإلوري ـ رحمه الله ـ لتلبية هذا الغرض الجليل لبناء الغايات المثلى .

---

(1) الإلوري ، تاريخ الدعوة إلى الله من الأمس إلى اليوم ، مكتبة وهبة ، ط٢، عام ١٩٧٩م ، ص : ٢٣٣.

(2) الإلوري ، تاريخ الدعوة الإسلامية ، المرجع السابق والصفحة.